القصة الشهرية

زرياب الفارسى

مغنى بلاط قرطبة

شهدت قرطبة فى عهد الخليفة الأندلسى عبد الرحمن الثانى ما لم تشهده بغداد فى عهد رون الرشيد . فقد مات الحكم فى سنة ٨٢٢ ميلادية بعد أن قضى على الفتن الداخلية . وخضع الدهماء الذين أرادوا تكدير صفو البلاد . فخلف لابنه عبد الرحمن ملكا مستقراً . وسلطاناً واسعاً . وخزانة عامرة . وبلاطا مرحا ناعماً . فأخذ عبد الرحمن يتأثر خطوات الرشيد فى بغداد . فأحاط ملكه بكل ألوان الأبهة والفخامة . وأمعن فى إقامة القصور وفى إنشاء الحدائق . وأخذ فى تجميل المساجد . وبناء المنشآت العامة

وكان عبد الرحمن كغيره من الملوك المثقفين يحب الشعر والغناء . ويقرب منه الأدباء ويغمرهم بحظوته ويحوطهم بنعمته . ويحب الفنون الجميلة . فيبسط لأصحاب الفن الجميل يده . ويحبوهم بحظوته . وفضلا عن هذا وذاك كان الخليفة نفسه شاعراً وأديباً . يجلس الى سريره فى ساعات الفراغ ليملى الشعر ويصوغ النثر . وكان لين الجانب دمث الأخلاق . واسع الحلم . هادىء الطبع . لاعيب فيه إلا أنه سلس القياد . يخضع لرأى الخاصة من حاشيته

وكان لأربعة من خاصته الأثر الواضح فى حياته كلها . أولهم وأكثرهم نفوذاً المغنى (زرياب) الفارسى . وثانيهم الأميرة (طروب) وثالثهم الغلام (نصر) ورابعهم (يحيى) الغتيه

ولما كان زرياب الفارسى هو الشخصية البارزة فيما سنرويه لك من حديث فيحلو لنا أن نلقى بعض الضوء على نشأته وحياته . فقد كان زرياب غلاماً لأسحق الموصلى الوسيقار المعروف ببغداد تلقى عليه أصول فن الموسيقى والغناء ولازم سيده فى مجالس الغناء والسمر فكان منذ قدم الى بغداد من الموصل ومنذ طلق فارسيته . طالباً وغلاماً . ونال نعمة فى طلب الموسيقى حتى برع فيها وتفوق على أستاذه وسيده . فحدث ذات ليلة أن عقد الخليفة هارون الرشيد مجلس الغناء والموسيقى وسمح للغلام زرياب أن يشهد المجلس

الى جانب أستاذه وسيده إسحق الموصلي لأن الخليفة كان قد سمع ببراعته في الفن وعلو كعبه فيه . فلما غنى إسحق وعزف . لاحظ الغلام عليه بعض الخطأ واستدرك بعض الزيغ . فسر هارون وأمره بالغناء والعزف . وأجزل له في العطاء فغضب إسحق لهذا وكان له أعوان في بلاط هارون . فما زالوا يدسون لزرياب ويشون به حتى غضب عليه هارون واستدعاه . فلما مثل بين يديه أمره بمغادرة البلاد خلال فترة عينها له بحيث يهدر دمه بعد انقضائها فغادر زرياب مدينة بغداد وشد رحاله الى الأندلس واختار قرطبة مقاما له . فلما ولي عبد الرحمن الثاني الملك كما قدمنا قربه منه واختصه بالحظوة . واختاره لمجالس الموسيقى والغناء ولم يفكر زرياب في ذلك الحين في أن يزج بنفسه في شؤون الدولة . ولا أن يساهم في أمورها السياسية . إذ كانت دسائس بغداد خير رادع وأمثل نذير له بسوء عاقبة من ينال الحظوة من هذه الناحية . لكن الخليفة دعاه يوماً الى خلوته بعد الفراغ من مجلسه . وبعد سهرة ظلت الى قبيل منتصف الليل . فلما مثل بين يديه قال له الخليفة :

أنت تعلم بأنك فارسي الأصل . لست من أبناء العرب . ولست تمت الى الأندلس الزاهرة بصلة . لكن إخلاصك واستقامتك . ومتانة خلقك . تنم عن أن لك كرم نصيباً وفيراً من محتدك . فأنا مستخلصك لنفسي . على أن تكون صريحاً كل الصراحة . حين استوضحك أمراً . كتوما غاية الكتمان . حين أودعك سراً .

فقال زرياب : أحمد الله في حياة مولاي . وجعلني فداءه . لقد نعمت برضائك . واستمتعت بثقتك . فحق علي أن أحمد الله على ذلك . ولكني أرجو أن يتفضل مولاي فيعفيني من التدخل في شؤون الدولة . وأمور الرعية

قال الخليفة : أتعصى لي أمراً وقد اتخذتك موضع الثقة . ومستودع السر ؟

قال زرياب : « حاشا يا مولاي أن أعصي لك أمراً . ولكني أردت أن أسبر مقدار ثقتك ومبلغ إسرارك . ولو أن مولاي صبر يوماً واحداً ولم يكاشفني بهذه الرغبة . لقضيت أن أغادر قرطبة على أن أبقى بها . أختلف الى القصر . وأستمتع بنعمة مولاي . في حين أكون شريكاً في الجرم . مساهما في الاثم . فان جريمة شنيعة ارتكبت في هذا القصر . وما يزال المجرم آمناً معافىً . يرتع في نعمته . ويتقلب ظلاله »

فزع الخليفة لما سمع من الموسيقار زرياب . فكان كل همه أن يطمئنه ربما ينتزع منه ذلك السر الرهيب . فقال قل « يازرياب وأنت آمن » قال زرياب : « لو أنه يا مولاي أمر لايهدد كيان الدولة لترددت في الافضاء به . ولكنه جريمة رهيبة كانت تهدد حتماً كيان الدولة لولا ما اتخذت حيالها من إجراء بغير إذن مولاي »

أنصت الخليفة لقصة زرياب فقال :

« تذكر يا مولاى أنك أرهقتنى منذ ثلاثة أيام حين كنت تستحثنى على الغناء . ثم لاحظت بنفسك آثار هذا الارهاق فصرفتنى الى حديقة القصر وسمحت لى بأن أتريض أرجاءها منفرداً وكان الليل قد انتصف . وهذا عنوان الثقة والعطف . فلما توسطت الحديقة بعيداً عن أعين الحراس . رأيت شبحاً يدنو من جدار القصر وهو يبالغ فى الحذر والحيطة . فثارت فى نفسى الشبهات . ورأيت أن آخذ بالأحوط . فازويت وراء شجرة باسقة وعندئذ رأيت الشبح يستقر تحت نافذة من نوافذ الأميرة (طروب) . فأطفىء النور للتبيت من هذه النافذة . وتدلى حبل منها امتدت الى طرفه يد الشبح . فعبثت به قليلا . ثم ارتفع الحبل ومضى الشبح . فسارعت يا مولاى بالخروج من الحديقة . ودرت حول القصر الى أن وصلت تجاه النقطة التى قصد اليها الشبح . ولكنى ابتعدت عن الأسوار حتى أراه ولا يرانى . ورابطت هناك حتى اجتاز الشبح السياج . فتبعته حتى وصلنا سوياً الى قنطرة قرطبة . وهناك تبينته راهباً من أعوان الأسقف (اسحق) الذى سمح له مولاى بأن يقيم بالمدينة وأباح له فى أمر دينه ما أباح الكتاب والسنة . فاستوقفته لأتبين جلية أمره فأبى . ولم يقتصر على إبائه بل استل من منطقته خنجراً يريد إغماده فى صدرى . فلم أمهله يا مولاى بل صرعته بضربة من خنجرى اللامى ثم عمدت الى أوراقه فتحصتها فألفيت فى طياتها رسالة من جارية الأميرة إلى قائد الفرنجة الأكبر « لويس ديبونير » تقول له فيها إن الخليفة مطمئن . هادىء البال . قد حشد الجند . وهيأ الجيوش . فابق مكانك ولا تغامر بجيشك حتى أنذرك .

عندئذ تناولت الخنجر مرة أخرى . وجئت الى جانب الراهب الذى كان ما يزال يئن من جرحه البليغ . واستخرته إحدى الثنتين . الافضاء باسم كاتب الرسالة . أو الاجهاز عليه . فان أبيناً مؤثماً فلم يكتمان لاثبقية لم أتبين منها إلا أن الكتاب من « ثريا » جارية الأميرة « طروب » وعندئذ فاضت روحه الى بارئها .

لم أشأ يا مولاى أن أفزعك بمثل هذا النبأ بل قصدت تواً الى دار الأمير « ناصر » صاحب السيف وكاشفته بهذا السر . وأشرت عليه بأن تبدل الرسالة حتى تصبح على العكس من الرسالة الأولى . فاستصوب ما أشرت به . وكتبنا الرسالة فعلا وأوفدنا بها أحد رسله السريين الى « لويس ديبونير » وقد أحلت الرسالة بضرورة الهجوم على حدود الدولة . وهانحن فى انتظار النتيجة . على أنى أشير على مولاى مرة أخرى بألا يمس الجارية حتى تثمر الرسالة وعندئذ يكون لنا موقف آخر

مضى على هذا الموقف إثنا عشر يوماً كان فيها الخليفة مكتئبا مضطرب البال . وحدث فى الليلة الثالثة عشرة أن كان زرياب جالساً بين يدى الخليفة . فاستأذن الحاجب لرسول من لدن صاحب السيف وقائد الجيش يبلغه فيه بأن جيوش الأندلس قد هزمت جيوش الفرنجة على الحدود وينوه فيه بفضل « زرياب » دون أن يذكر شيئا من هذه القصة كلها . ولكنه التمس من الخليفة أن يدع تقدير الأمر الى « زرياب » نفسه . فلما أمر الخليفة الرسول بالانصراف من حضرته . قال هذا الرسول إنه يحمل خطابا آخر كلفه الأمير ناصر بأن يرفعه الى نديم الخليفة يدا بيد . فتناوله زرياب وقضه بأذن مولاه فوجد به أن الجارية « تريا » هى صاحبة الكتاب الأول وأنها دسيسة فى خدع الأميرة طروب وأنه اكتشف خلال تحقيقاته مع أسرى الفرنجة أن الجارية الخائنة أعجمية الأصل تمت الى هؤلاء الفرنجة بصلة

اطلع الخليفة على كل هذا . فاستدعى زرياب فأتى بجارية أعلم قاضى المسلمين فقبض عليها وسيقت اليه . فحكم بحرقها إذ عرضت جيوش المسلمين للخطر . ومالأت الفرنجة على دولة الأندلس . فنفذ الحكم على نفس قنطرة قرطبة التى صرع الراهب عليها .

وكان الفضل فى إحراز المسلمين النصر فى هذه اللحمة التاريخية المعروفة بموقعة « لويس ديبونير » للموسيقار الفارسى « زرياب سمير الملك » (ط)

أمل يتحقق

تفتحت أكمام الأماني عن نور الأمل . فتأرجح بين الشك واليقين حيناً بعد حين ... ثم تأرج شذاه وفاح منه العبير ! واذا الأمل اليائس حقيقة ساطعة تلمس بالأكف و « تقرأ » بالعيون :

« المعلم الالزامى كجوهرة فى صندوق تراكمت عليه أتربة الأقاويل . ومهمتنا فتح هذا الصندوق ليظهر هذا المعلم فيبهر الناس جميعاً » بخ بخ يارئيس الاتحاد ! !

ها هو ذا « الصندوق » يفتح بيدك القوية . وها هى كلمتك الحكيمة تأخذ سبيلها الى الظهور .

وسيبرهن المعلم الالزامى أنه أهل لهذا الوصف الذى وصفته وأن هذه الكلمة الجليلة تمثل نفسه النبيلة . وأنه ابن بجدتها وصاحب عبقريتها . ومرمى ومرمى « بصحيفة التعليم الالزامى » ترمى عن قوسنا وتفصح عن شعورنا وحسنا وتكون مرآة لآلامنا وآمالنا .

ومن العلى القدير نستمد العون إنه ولى التوفيق

محمد عيسى مرسى
نقيب البحيرة ومندوب الاتحاد